

السيرة - فقه السيرة النبوية - الدرس (١٦-٥٧) : ما لاقى سيدنا محمد من الأذى .

فضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ٢٠٠٥-٠٨-١٥

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الصادق الوعد الأمين، اللهم لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم، اللهم علمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علمتنا، وزدنا علماً، وأرنا الحق حقاً، وارزقنا اتباعه، وأرنا الباطل باطلاً، وارزقنا اجتنابه، واجعلنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه، وأدخلنا برحمتك في عبادك الصالحين، أخرجنا من ظلمات الجهل والوهم إلى أنوار المعرفة والعلم، ومن حول الشهوات إلى جنات القربات.

ما هي الحكمة الربانية في خضوع الأنبياء لامتحانات صعبة في ظروف معينة في الحياة ؟

أيها الأخوة الكرام، مع درس جديد من دروس فقه السيرة النبوية، وقبل أن أبدأ الحديث عن فقرات هذا الدرس لا بد من مقدمة:

لماذا أدخل الله جل جلاله نبياً كريماً السجن؟ - سيدنا يوسف - لعل واحداً من المؤمنين الصادقين لسبب أو لآخر دخل السجن، فله في هذا النبي الكريم أسوة حسنة.

لماذا اتهمت السيدة عائشة بأعظم ما تعزز به المرأة بعفتها؟ إن أية امرأة إلى يوم القيامة اتهمت، وهي بريئة فلها في هذه السيدة أسوة حسنة.

لماذا كان ابن سيدنا نوح شقيماً؟ لعل أباً بذل قصار جهده في تربية ابنه، لكن الابن مخير، واختار طريقاً آخر، هذا الأب المتألم أشد الألم، لعل له في هذا النبي الكريم نوح عليه السلام أسوة حسنة. لماذا كانت زوجة لوط امرأة كافرة؟ لعل أي إنسان ابتلي بزوجة سيئة، فله في هذا النبي الكريم أسوة حسنة.

لماذا ابتلي سيدنا أيوب بالمرض؟ لعل أي مؤمن اختار له ربه مرضاً لحكمة بالغة، له في هذا النبي أسوة حسنة.

لماذا كان سيدنا سليمان ملكاً؟ أي إنسان ولاه الله أمر المسلمين قوته هذا النبي الكريم، بالعدل، بالرحمة، بإحقاق الحق، بإبطال الباطل.

لماذا كان أحد أنبياء الله عقيماً - سيدنا زكريا -؟ لعل الله اختار لإنسان أن يكون عقيماً لحكمة بالغة، له في هذا النبي أسوة حسنة.

هؤلاء قمم البشر، هؤلاء نخبة البشر، ومع ذلك أتى الله بعضهم الملك، وجعل بعضهم ضعافاً، وجعل من بعضهم ذرية، ولم يجعل لبعضهم ذرية، إذًا: هؤلاء الذين اختارهم الله عز وجل ليكونوا قمم البشر كانوا قدوة للبشر.

انظر إلى التشابه بين اضطهاد المسلمين الآن وبين اضطهادهم في زمن البعثة ، ماذا نستنتج ؟

أيها الأخوة، حينما نأخذ فقرات هذا الدرس، كيف نكلت قريش بأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكيف تفتنت في تعذيبهم، وفي إذلالهم، وفي إفقارهم، عندئذ يهون علينا ما يعانيه المسلمون اليوم في شتى بقاع الأرض من اضطهاد وحرب همجية قاسية لا هوادة فيها. لذلك يجب أن نعلم أن معركة الحق والباطل معركة أزلية أبدية، وأن من حكم الله عز وجل أي يكون البشر فريقين، فريق على حق، وفريق على باطل، فريق يعيش للناس، وفريق آخر يعيش للناس لهم، فريق يملك قلوب الناس، وفريق يملكون رقاب الناس.

ماذا نستنبط من هذه المواقف ؟

أيها الأخوة، روى البخاري ومسلم في قوله تعالى:

(وَلَا تَجْهَرُ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا)

(سورة الإسراء الآية: ١١٠)

عن ابن عباس، يقول: ((نزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم مختفياً بمكة، كان إذا صلى بأصحابه رفع صوته بالقرآن، فإذا سمع المشركون قراءته سبوا القرآن، ومن أنزله، ومن جاء به، فقال الله تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم، قال تعالى:

(وَلَا تَجْهَرُ بِصَلَاتِكَ)

(سورة الإسراء الآية: ١١٠)

أي بقراءتك فيسمع المشركون، فيسبوا القرآن، قال تعالى:

(وَلَا تُخَافِتْ بِهَا)

(سورة الإسراء الآية: ١١٠)

عن أصحابك، فلا تسمعهم:

(وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا)

(سورة الإسراء الآية: ١١٠)

الآن هناك من يسب هذا الدين، ومن يتهم هذا القرآن الكريم بأنه كتاب قتال، كتاب قتل، كتاب إرهاب، التاريخ يعيد نفسه، وحينما قال الله عز وجل:

(وَلَا تَبْرَجَنَّ تَبْرَجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى)

(سورة الأحزاب الآية: ٣٣)

ماذا يستنبط؟ أن هناك جاهلية ثانية، هي أدهى وأمر،

((كيف بكم إذا لم تأمروا بالمعروف، ولم تنهوا عن المنكر؟ قالوا: أو كان ذلك يا رسول الله،

قال: وأشد منه سيكون، قالوا: وما أشد منه؟ قال: كيف بكم إذا أمرتم بالمنكر، ونهيتم عن

**المعروف؟ قالوا: أو كائن ذلك يا رسول الله، قال: وأشد منه سيكون، قالوا: وما أشد منه؟ قال:
كيف بكم إذا أصبح المعروف منكراً والمنكر معروفاً؟))**

[ورد في الأثر]

وروى ابن إسحاق أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا جهر بالقرآن وهو يصلي تفرقوا عنه، وأبوا أن يسمعوا منه، وكان الرجل إذا أراد أن يستمع من رسول الله صلى الله عليه وسلم بعض ما يتلو، وهو يصلي، يسترق السمع فرقاً منهم؛ أي خوفاً منهم، فإن رأى أنهم قد عرفوا أنه يستمع ذهب خشية أذاهم، ولم يستمع، وإن خفض النبي صلى الله عليه وسلم صوته لم يسمعوا شيئاً من قراءته، فأنزل الله قوله تعالى:

(وَكَأ تَجْهَرُ بِصَلَاتِكَ)

(سورة الإسراء الآية: ١١٠)

أي فيتفرقوا عنك، قال تعالى:

(وَكَأ تُخَافِتُ بِهَا)

(سورة الإسراء الآية: ١١٠)

فلا يسمع من أراد أن يسمعها ممن يسترق ذلك دون علمهم، قال تعالى:

(وَابْتِغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا)

(سورة الإسراء الآية: ١١٠)

وعندما كان المسلمون يسبون أصنام الكفار أخذ المشركون يسبون الله تعالى عدواً بغير علم، فأنزل الله تعالى:

(وَكَأ تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ)

(سورة الأنعام الآية: ١٠٨)

فقرات ثلاث، ماذا نستنبط منها؟ أن سيد الخلق، وحبيب الحق كان ضعيفاً، وقد تفنن المشركون في التنكيل بأصحابه، وفي إيذائهم، وهو لا يستطيع أن يفعل شيئاً، فإذا كنت ضعيفاً في وقت ما، وفي حقبة ما، وفي ظرف ما، لا تتألم كثيراً، سيد الخلق، وحبيب الحق كان ضعيفاً، ولم يستطع أن يدافع عن أصحابه، ولا أن يعطيهم شيئاً، وكان يقول لهم دائماً:

(قُلْ إِنِّي لَأ مَلِكٌ لَكُمْ ضَرًّا وَكَأ رَشَدًا)

(سورة الجن الآية: ٢١)

بل أبلغ من ذلك:

(قُلْ لَأ مَلِكٌ لِنَفْسِي نَفْعًا وَكَأ ضَرًّا)

(سورة الأعراف الآية: ١٨٨)

(وَكَأ أَعْلَمُ الْعَيْبِ)

(سورة هود الآية: ٣١)

(وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْعَيْبَ لَأَسْتَكْتَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ)

(سورة الأعراف الآية: ١٨٨)

(قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ)

(سورة الأنعام الآية: ١٥)

أربع آيات، لا يعلم الغيب، لا يملك لكم نفعاً ولا ضراً، لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً، يخاف إن عصى ربه عذاب يوم عظيم، هل يجرو الأن إنسان يعمل في حقل الدعوة أن يدعي أنه يعلم الغيب؟ هو كاذب إذاً، أن يدعي أنه بإمكانه أن ينفع أو أن يضر، كاذب، لا يجرو إنسان كائناً من كان مهما علا نجمه، ومهما سطع اسمه أن يعلم الغيب.

من هو المسؤول؟

أيها الأخوة، هناك ملامح دقيقة جداً، لو أنك استفتيت إنسان ما، وأفتى لك بشيء، وأنت في غاية السرور، لأنك انتزعت من فمه فتوة لصالحك، هو المسؤول، أنا لست مسؤولاً، من قال لك ذلك؟ إذا استطعت أن تنتزع فتوة من فم سيد الحق، وحبیب الحق محمد صلى الله عليه وسلم، ولم تكن محققاً لا تنجو من عذاب الله، الدليل:

((وَلَعَلَّ بَعْضُكُمْ أَنْ يَكُونَ الْحَنَ بِحُجَّتِهِ مِنْ بَعْضٍ، فَأَقْضِي لَهُ عَلَى نَحْوِ مِمَّا أَسْمَعُ مِنْهُ، فَمَنْ قَضَيْتَ لَهُ مِنْ حَقِّ أَخِيهِ شَيْئاً فَلَا يَأْخُذُ مِنْهُ شَيْئاً، فَإِنَّمَا أَقْطَعَ لَهُ قِطْعَةً مِنَ النَّارِ))

[أخرجهما البخاري ومسلم في الصحيح]

أيها الأخوة، هذه من بديهيات الدين، أما هذا الجاهل الذي يستنطق من إنسان يعمل في الحقل الديني فتوى في شأن إيداع المال في البنك، أو فتوى بالاختلاط، أو فتوى بالغناء، أو فتوى بسفر المرأة دون محرم، هذا الذي يأخذ من أفواه من يعملون في الحقل الديني فتاوى ما أنزل الله بها من سلطان، وبنام ناعم البال، قرير العين، على توهم أن هذا الذي أفتى، هو المسؤول، من قال لك ذلك؟

((وَلَعَلَّ بَعْضُكُمْ أَنْ يَكُونَ الْحَنَ بِحُجَّتِهِ مِنْ بَعْضٍ، فَأَقْضِي لَهُ عَلَى نَحْوِ مِمَّا أَسْمَعُ مِنْهُ، فَمَنْ قَضَيْتَ لَهُ مِنْ حَقِّ أَخِيهِ شَيْئاً فَلَا يَأْخُذُ مِنْهُ شَيْئاً، فَإِنَّمَا أَقْطَعَ لَهُ قِطْعَةً مِنَ النَّارِ))

[أخرجهما البخاري ومسلم في الصحيح]

هل يملك النبي النفع أو الضرر لنفسه؟

أخوانا الكرام، الأمر واضح وضوح الشمس، مرةً ثانية:

(وَكَلَّا أَعْلَمُ الْغَيْبِ)

(سورة هود الآية: ٣١)

من؟ سيد الخلق، وحبیب الحق:

(قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ)

(سورة الأنعام الآية: ١٥)

(قُلْ لَّا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا)

(سورة الجن الآية: ٢١)

(قُلْ لَّا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا)

(سورة الأعراف الآية: ١٨٨)

هذه خصائص النبي عليه الصلاة والسلام، وأي إنسان يدعي ما ليس للنبي فهو في باطل، وفي ضلال، وفي دجل، وفي إيها، بل هو في غياب.

الأسئلة التي اقترحتها اليهود على قريش لتتال من جانب النبي:

أخوانا الكرام، أوفدت قريش نفرًا منهم إلى المدينة، على رأسهم النضر بن الحارث، ليأتوا من اليهود بأسئلة تعجيزية فيطرحونها على النبي صلى الله عليه وسلم، فقالت لهم اليهود: سلوه عن أهل الكهف، وعن ذي القرنين، وعن الروح، قال تعالى:

(وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ ذِي الْقُرْنَيْنِ)

(سورة الكهف الآية: ٨٣)

(وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ)

(سورة الإسراء الآية: ٨٥)

لكن الله أبطل كيدهم عندما أنزل الله قرآنًا في شأن الإجابة عن هذه الأسئلة، هذا يؤكد أن السماء توحى إليه بالحق، قال تعالى:

(وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرِيْمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ)

(سورة آل عمران الآية: ٤٤)

لمن يكون الولاء والبراء في الدين:

أيها الأخوة، هذا الموضوع ينقلنا إلى موضوع كبير اسمه الولاء والبراء، الولاء أن توالي المؤمنين، أي أن تحبهم، وأن تنصرهم، وأن تنصحهم، وألا تسلمهم لأعدائهم، وألا تتعاون مع أعدائهم عليهم، ومن لم يكن مواليًا للمؤمنين فليس مؤمنًا، هذا الذي يتعاون مع الطرف الآخر ليقهر المؤمنين، الله ورسوله بريء منه، فاليهود تعاونوا مع قريش كي يخرجوا النبي صلى الله عليه وسلم، كي يسألوه أسئلة لا يعلمها، ولكن الوحي أجاب عن كل هذه الأسئلة وقهرهم، وهذا شيء واقع:

(وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُوكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذًا لَتاتَّخِذَنَّكَ خَلِيلًا)

(سورة الإسراء الآية: ٧٣)

أيها الأخوة، الطرف الآخر يستخدم أسلوب الترغيب، لذلك قريش أرادت أن تجرب أسلوب الترغيب، فأرسلت عتبة بن ربيعة الذي قال للنبي صلى الله عليه وسلم: يا ابن أخي، إنك منا حيث قد علمت من المكان في النسب، وقد أتيت قومك بأمر عظيم، فرقت به جماعتهم.. فاسمع مني أعرض عليك أموراً لعلك تقبل بعضها، إن قلت: إنما تريد بهذا الأمر مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً، (هم لا يفهمون الأشياء إلا بقيمهم، لا يفهمون دعوة الله خالصة، يفهمون دعوة من أجل المال، يفهمون دعوة من أجل المتع، يفهمون دعوة من أجل السلطان، وكأن هذا الإنسان عبر عن مكنون نفسه، ونفس قومه) إن كنت إنما تريد من هذا الأمر مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً، وإن كنت تريد شرفاً، (سيطرة، مكانة، هيمنة، سلطة) سودانك علينا، جعلناك سيدنا، فلا نقطع أمراً دونك، وإن كنت تريد ملكاً ملكناك علينا، وإن كان هذا الذي يأتيك رثياً من الجن تراه لا تستطيع رده عن نفسك، طلبنا لك الطبيب، وبدلنا فيه أموالنا حتى تبرأ منه. فلما فرغ من قوله تلا النبي صلى الله عليه وسلم عليه صدر سورة فصلت إلى أن وصل إلى قوله تعالى:

(فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ)

(سورة فصلت الآية: ١٣)

أيها الأخوة، سمع هذه الآيات، وكان صاعقة نزلت عليه، فعاد إلى قومه، وأخبرهم بما سمع، وقال: هذا الذي يقوله محمد ليس شعراً، ولا سحراً، ولا كهانة، وأقترح عليكم أن تدعو محمداً وشأنه. وفي روايات أخرى من هذه الروايات: وإن كان بك الباءة؛ أي تشتهي النساء، زوجناك عشرة نسوة تختار من أي بيوتات قريش شئت.

أما الوليد بن المغيرة الذي جاء النبي صلى الله عليه وسلم فقرأ عليه القرآن، فكأن رق له، فبلغ ذلك أبا جهل، فأتاه فقال: يا عم، إن قومك يرون أن يجمعوا لك مالاً، قال: لم؟ قال: ليعطونك، فإنك أتيت محمداً لتعرض عنه، يعني إن أتيت محمداً أعرض عنه، وخذ من المال ما شئت، ثم قال الوليد عن القرآن: " والله إن لقوله حلاوة، وإن عليه لطلاوة، مثمر أعلاه، مغدق أسفله، وإنه يعلو، وما يعلى عليه، وإنه ليحطم ما تحته "

هناك من ادعى النبوة جاء بكلام ادعى أنه من عند الله، قال: والطاحنات طحناً، والعاجنات عجنأ، والخايزات خبزاً.

سبحانك يا رب! المؤمن يشعر بكل خلية في جسمه أن هذا كلام الله، وأن هذا كذب وهراء، أليس كذلك؟ وإنه لمثمر أعلاه، مغدق أسفله، وإنه يعلو، وما يعلى عليه، وإنه ليحطم ما تحته، يئست

قريش من أسلوب الترغيب، لذلك المؤمن لا يلين لا لسبائك الذهب اللامعة، ولا يلين لسياط الجلادين اللاذعة، المؤمن رجل مبدأ،

((والله يا عم، لو وضعوا الشمس في يميني، والقمر في شمالي، على أن أترك هذا الأمر ما تركته، حتى يظهره الله أو أهلك دونه))

[ورد في الأثر]

أسلوب الترهيب التي قامت به قريش لتخويف من يتبع هذا الدين:

الآن لونت قريش في أسلوبها، واتبعت أسلوب الترهيب، كان أبو جهل إذا سمع عن الرجل أنه أسلم، وله شرف ومنعة، وبخه وأخزاه، وقال له: تركت دين أبيك، وهو خير منك، والله لنسفهن حلمك، ولنضعفن رأيك، وإن كان تاجراً، قال له: والله لنكسدن تجارتك، ولنهلكن مالك، وإن كان ضعيفاً ضربوه، وأغروا به، وحينما لم تثمر كل هذه الأساليب السابقة في صد النبي صلى الله عليه وسلم عن دينه لجأت قريش إلى أسلوب الاعتداء والتصفية الجسدية، قال تعالى:

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ)

(سورة الأنفال الآية: ٣٦)

(وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ)

(سورة يوسف الآية: ٢١)

(إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لَلْإِسْهَادِ)

(سور غافر الآية: ٥١)

(وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ)

(سورة الروم الآية: ٤٧)

هؤلاء الذين نصرنا النبي صلى الله عليه وسلم في أعلى عليين، وهؤلاء الذين حاربوه في مزابل التاريخ، في أسفل السافلين.

الغبي من يجهز حرباً ضد خصمه وهو لا يعرفه:

أيها الأخوة، ما من إنسان أشقى ولا أغبى ممن يقف في خندق مضاد للحق، هل تعلم من هو الطرف الآخر؟

(إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا)

(سورة التحريم الآية: ٤)

امرأتان، حفصة وعائشة، قال تعالى:

(وَأَن تَظَاهَرَ عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ)

(سورة التحريم الآية: ٤)

خالق الكون، يقول:

(وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ)

(سورة التحريم الآية: ٤)

ما معنى هذه الآية؟ معنى هذه الآية: أنك إذا فكرت أن تكون عدواً للحق، إذا فكرت أن تكون عدواً لله، إذا فكرت أن تكون عدواً لأنبيائه، إذا فكرت أن تكون عدواً لصالح المؤمنين، أنك إذا أردت أن تكون عدواً لعالم مخلص، يجب أن تعلم من هو الطرف الآخر، من هو خصمك، إنه الله الذي بيده كل شيء، لذلك أشقى إنسان على وجه الأرض الذي يحارب الله ورسوله، نهايته في مزبلة التاريخ، نهايته مع فرعون وقارون، ومع كل الظالمين الذين أذلهم الله عز وجل.

لم يستطع فرعون هذه الأمة بزعمه أن يظا رقبة النبي عليه الصلاة والسلام؟

أيها الأخوة، لقد استفحل إيذاء قريش لرسول الله صلى الله عليه وسلم لا في الدعوة السرية، بل في الدعوة العلنية، بعد أن أمر الله جل جلاله نبيه أن يظهر شعائر دينه، كالصلاة عند الكعبة، فقد روى مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن أبا جهل، قال:

((هَلْ يُعْقَرُ مُحَمَّدٌ وَجْهَهُ بَيْنَ أَظْهُرِكُمْ - يَعْنِي إِذَا سَجَدَ - فَقِيلَ: نَعَمْ، فَقَالَ: وَاللَّاتِ وَالْعَزَى لَنِيْنَ رَأَيْتُهُ يَفْعَلُ ذَلِكَ لِأَطَانِ عَلَى رَقَبَتِهِ، أَوْ لِأَعْقَرَنَ وَجْهَهُ فِي التَّرَابِ، فَآتَى رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ يُصَلِّي، زَعَمَ لِيَطَأَ عَلَى رَقَبَتِهِ - كَمَا حَلَفَ - فَقِيلَ لَهُ: مَا لَكَ؟ فَقَالَ: إِنَّ بَيْنِي وَبَيْنَهُ لَخُنْدَقًا مِنْ نَارٍ، وَهَوَلاً وَأَجْنِحَةً، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: لَوْ دَنَا لَخَنَطَفْتُهُ الْمَلَائِكَةُ عَضْوًا عَضْوًا))

[أخرجه مسلم عن أبي هريرة في الصحيح]

قال تعالى:

(وَاللَّهُ يَعَصِمُكَ مِنَ النَّاسِ)

(سورة المائدة الآية: ٦٧)

(فَأِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا)

(سورة الطور الآية: ٤٨)

يجب أن تثق أن الله يحفظك، وأن الله لا يسلمك، وأن الله يدافع عنك، وإذا كان الله معك فمن عليك؟ وإذا كان عليك فمن معك؟ لذلك نزل القرآن الكريم:

(كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُفٍ * أَن رَّأَهُ اسْتَعْتَى * إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجْعَى * أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى * عَبْدًا إِذَا صَلَّى * أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَى الْهُدَى * أَوْ أَمَرَ بِالْتَّقْوَى * أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى * أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ

يَرَى * كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنْتَه لَسَفَعَنُ بِالنَّاصِيَةِ * نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ * فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ * سَدَّعُ الزَّبَانِيَةَ *
كَلَّا لَأَ تُطِغُهُ وَاسْجُدَّ وَاقْتَرَبَ)

(سورة العلق الآية: ٦-١٩)

ماذا قدم النبي وصحبه حتى وصل الإسلام إلينا ؟

أيها الأخوة،

((روى البخاري بسنده عن عروة بن الزبير، قال: سألت عبد الله ابن عمر عن أشد ما صنع المشركون في رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: " رأيت عقبة بن أبي معيط جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم وهو يصلي، فوضع رداءه في عنقه فخنقه به خنقا شديدا، فجاء أبو بكر حتى دفعه عنه صلى الله عليه وسلم، فقال: أتقتلون رجلا أن يقول ربي الله، وقد جاءكم بالبينات من ربكم ؟))

[أخرجه البخاري عن عروة بن الزبير في الصحيح]

هذه الدعوة التي وصلت إلينا بذل من أجلها الغالي والرخيص، بذل من أجلها النفس والنفيس، ينبغي ألا نضيعها، الإسلام وصل إلى هذه البلاد بفضل هؤلاء الصحابة الذين رباهم النبي صلى الله عليه وسلم.

فلما جاءه جبريل، وقال: يا محمد، أمرني ربي أن أكون طوع إرادتك، لو شئت لأطبقت عليهم الجبلين، قال: لا يا أخي، اللهم اهد قومي.

ما تخلى عن قومه، ودعا لهم بالهداية، واعتذر لهم فإنهم لا يعلمون، ودعا لهم هذا الإنسان الذي أقسم الله بعمره الثمين، قال له:

(لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ)

(سورة الحجر الآية: ٧٢)

ألا ينبغي أن نقف بهذا النبي الكريم، ألا ينبغي أن يكون الوقت عندنا ثمينا أن نفعل فيه شيئا لصالح المسلمين، أن نخفف من متاعهم، أن نعزز مكانتهم، أن نحل مشكلاتهم، أن نأخذ بيد ضعيفهم، أن نطعم جائعهم، أن نكسو عاريهم.

إليكم هذا الإيذاء الذي توصل إلى النبي من أبناء جلدته:

روى بخاري ومسلم من حديث ابن مسعود، قال:

((بَيْنَمَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُصَلِّي عِنْدَ الْبَيْتِ، وَأَبُو جَهْلٍ وَأَصْحَابٌ لَهُ جُلُوسٌ، وَقَدْ نُحِرَتْ جَزُورٌ بِالْأَمْسِ، فَقَالَ أَبُو جَهْلٍ: أَيُّكُمْ يَقُومُ إِلَى سَلَا جَزُورِ بَنِي فَلَانٍ - يَعْنِي أَحْسَانَهَا - فَيَأْخُذُهَا، فَيَضَعُهَا فِي كَتِفِي مُحَمَّدٍ إِذَا سَجَدَ، - نَحْنُ الْآنَ بِحُبُوحَةٍ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، مَعْرُزُونَ، مَكْرُمُونَ،

نأتي إلى المساجد، نستمع إلى الدروس، نستمع إلى الخطب، ندخل إلى بيوتنا نصلي، نساونا محجبات، لا أحد يعترضنا، هذه نعمة كبيرة جداً، أما هؤلاء الأصحاب الكرام الذين دفعوا من أجل هذا الإسلام حياتهم، ودفعوا كل ما يملكون، نحن لا نعرف قيمة هذا الإسلام - فانبعث أشقى القوم فأخذهُ، فلما سجد النبي صلى الله عليه وسلم وضعة بين كتفيه، قال: فاستضحكوا، وجعل بعضهم يميل على بعض، وأنا قائم أنظر، لو كانت لي معة طرحته عن ظهر رسول الله صلى الله عليه وسلم، والنبي صلى الله عليه وسلم ساجد ما يرفع رأسه، حتى انطلق إنسان فأخبر فاطمة فجاءت، وهي جويرية، فطرحته عنه ثم أقبلت عليهم، تشتمهم، فلما قضى النبي صلى الله عليه وسلم صلاته رفع صوته، ثم دعا عليهم، وكان إذا دعا، فو الذي بعث محمداً صلى الله عليه وسلم بالحق لقد رأيت الذين سمى - أي ذكر أسماءهم بالدعاء عليهم - صرعى يوم بدر. ثم سجدوا إلى القليب، قليب بدر))

[أخرجهما البخاري ومسلم في الصحيح من حديث ابن مسعود]

ومرة ضربوا النبي صلى الله عليه وسلم حتى أغشي عليه، فقام أبو بكر فجعل ينادي: " ويلكم أتقتلون رجلاً أن يقول: ربي الله؟ فتركوه، وأقبلوا على أبي بكر، وحاولت أم جميل زوجة أبي لهب أن تعتدي عليه بحجر فحماه الله منها، فلم تره، فكانت تحمل الحطب كي تضعه في طريقه صلى الله عليه وسلم كما حكي القرآن ذلك:

(وَأَمْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ فِي جَيْدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ)

(سورة المسد الآية: ٤-٥)

إليك رحمة الباري جل جلاله:

إنسان يقرأ القرآن، فقرأ قوله تعالى:

(اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى * فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى)

(سورة طه الآية: ٤٣-٤٤)

قال: يا رب، إذا كانت رحمتك بمن قال: أنا ربكم الأعلى، فكيف رحمتك بمن قال: سبحان ربي الأعلى؟ وإذا كانت رحمتك بمن قال:

(مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي)

(سورة القصص الآية: ٣٨)

فكيف رحمتك بمن قال: لا إله إلا الله؟ ورد في بعض الآثار القدسية: " أن يا داود، لو يعلم المعرضون انتظاري لهم، وشوقي إلى ترك معاصيهم لتقطع أوصالهم من حبي، ولما توار شوقاً إلي، يا داود هذه إرادتي في المعرضين فكيف في المقبلين؟ "

إذا كنت مطيعاً لرب العالمين، محباً له، محباً لأنبيائه، محباً لكتابه، محباً للمؤمنين، محباً للمساجد، محباً لعمل الخير فأبشر.

مرة أيها الأخوة، صفوان ابن أمية التقى بعمير بن وهب، فقال له عمير: يا صفوان، والله لولا صغار أخشى عليهم العنت من بعدي، ولولا ديون لزممتي ما أطيق سدادها لذهبت، وقتلت محمداً، وأرحتكم منه، صفوان عدو لدود، قال: يا عمير، أما أولادك فهم أولادي ما امتد بهم العمر، وأما ديونك فهي علي بلغت علي ما بلغت، فامض بما أردت، يعني اذهب، واقتل محمداً، وأرجنا منه، فسقى سيفه سماً، ووضع على عاتقه، وركب ناقته، وتوجه إلى المدينة بحجة أنه أتى المدينة ليفك أسر ابنه، فلما وصل المدينة رآه عمر رضي الله عنه، فقال: هذا عدو الله جاء يريد شراً، وقيده بحمالة سيفه، وساقه إلى النبي صلى الله عليه وسلم، سيدنا النبي لطيف، قال: يا عمر، أطلق سراحه، فأطلق سراحه، قال: يا عمير، ادن مني، فدنا منه، قال: يا عمير، سلم علينا، قال له: عمت صباحاً يا محمد، قال له، قل: السلام عليكم، قال له: لست بعيد عهد بسلامنا، هذا سلامنا، كتلة غلظة، قال: يا عمير، ما الذي جاء بك إلينا؟ قال: جئت أفك ابني من الأسر، قال: يا عمير، وهذه السيف التي على عاتقك؟ قال: قاتلها الله من سيوف، وهل نفعتنا يوم بدر؟ قال: يا عمير، ألم تقل لصفوان: لولا ديون لزممتي ما أطيق سدادها، ولولا أطفال صغار أخشى عليهم العنت من بعدي لذهبت، وقتلت محمداً، وأرحتكم منه؟ وقف وقال: أشهد أنك رسول الله، لأن هذا الذي جرى بيني وبين صفوان لا يعلمه أحد إلا الله، وأنت رسوله، وأسلم، أما صفوان فكان يخرج كل يوم إلى ظاهر مكة ليستقبل الركبان، فلعل الخبر السار بقتل محمد يصل إليه، ثم فوجئ أن عمير أسلم، قال تعالى:

(قُلْ مُؤْتُوا بَعِيْظَكُمْ)

(سورة آل عمران الآية: ١١٩)

(وَاللّٰهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنْتُمْ تَكْتُمُوْنَ)

(سورة البقرة الآية: ٧٢)

أيها الأخوة،

((روى الإمام أحمد من حديث أنس أن جبريل عليه السلام جاء ذات يوم إلى النبي صلى الله عليه وسلم، وهو جالس حزينا، قد خضب بالدماء، ضربه بعض أهل مكة، قال، فقال له: ما لك؟ قال: فقال له: فعل بي هؤلاء، وفعلوا، قال: فقال له جبريل عليه السلام: أتحب أن أريك آية؟ قال: نعم، قال: فانظر إلى شجرة من وراء الوادي، فقال: ادع بتلك الشجرة، فدعاها، فجاءت تمشي حتى قامت بين يديه، فقال: مرها فلترجع، فأمرها، فرجعت إلى مكانها، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: حسبي))

[أخرجه أحمد من حديث أنس في مسنده]

ويقول ابن كثير: إن غالب ما وقع للنبي صلى الله عليه وسلم من أذى كان بعد وفاة عمه أبي طالب.

ما هي الحكمة الربانية في إصابة النبي وصحبه بهذا الأذى والتعذيب؟

أيها الأخوة، إن شاء الله نتابع هذا في درس قادم، ولكن هذه الوقائع، وهذا الأذى، وهذا الاضطهاد، وهذا التنكيل، وهذا التعذيب، وهذا التكذيب، وهذا الازدراء، وهذه السخرية، وهذه الإهانة كلها صبت على النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه ليبين الله لنا أن هؤلاء كانوا أهلاً للدعوة إلى الله، قال تعالى:

(فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ)

(سورة الأحقاف الآية: ٣٥)

أيها الأخوة، ونحن فلنصبر، وإن الله وعدنا وعوداً كثيرة، قال:

(وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي)

(سورة النور الآية: ٥٥)

والحمد لله رب العالمين